

السباطات في العمارة الإسلامية

أ/ مكي حياة

أستاذة مساعدة

قسم التاريخ جامعة زيان عاشور/الجلفة

Résumé : Sabatate représente une des composantes de l'architecture musulmane. Associé à l'aspect climatique et essentiellement au climat chaud, le Sabatate répond aussi à des besoins sociaux, il peut être considéré comme un lieu de réunion et de convivialité familiale, ainsi qu'un espace où se règlent les différents et les conflits de la vie quotidien.

اهتمت أغلب الأبحاث بدراسة المدن العربية و تطرقت بالدراسة للكثير من معالمها كالمساجد والأسواق و المنازل، و منها ما اكتفى بتناول النسيج العمراني، و تعد كلها دراسات لظواهر معمارية وعمرانية في المدينة العربية الإسلامية، إلا أنها في مجملها اقتصرت على دراسة المعالم الأثرية المذكورة و غيرها من الظواهر المعمارية دون التطرق إلى موضوع عنصر السباطات.

و يرجع الاهتمام ببناء السباطات إلى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و ذلك ببناء سقيفة بني ساعدة، كما كان في الفترة الأموية بالشام، و منها إنتقل هذا التقليد للدولة العباسية حيث أنشأوا السباط بقصورهم، و استمر و جوده في الفترة الأموية بالأندلس حيث كان تواجد السباط بقصر قرطبة، و منه استمر استخدامه حتى الفترة العثمانية، حيث وجد واحد و عشرون سباطا بمدينة الجزائر، و نفس العدد تقريبا منها بمدينة قسنطينة، و كانت وظيفته ضرورية بالمدينة الإسلامية حيث تربط الأحياء و الأزقة، كما تقوم بدور اجتماعي مهم في التجاور خاصة و أن العائلة الواحدة كانت تسكن جنبا إلى جنب في معظم الأحيان.

يتميز السباط بالبساطة في التخطيط و في مواد البناء مثله مثل المنازل، لان السباط يبني بنفس المواد التي تبني بها المنازل، و ذلك لأنه عبارة عن سقيفة بين جدارين، و السباط بسيط في تكوينه حيث لا يحتوي على زخارف، باستثناء سباطات القصور و سباطات منازل الحكام، حيث و جدت بجدرانها أشكال رمزية، بالإضافة إلى وجود أعمدة و تيجان بالأبواب الموجودة أسفل السباط، مع استخدام مواد بناء أكثر تنوعا مقارنة بالسباطات التي ظهرت في العصور الأولى للإسلام مثل استعمال الرخام، و هي مرحلة تطور عن الطراز البسيط و الفقيرة من حيث مواد البناء، كذلك أعطت للعثمانيين المجال للإبداع حيث أدخلت مواد بناء جديدة، و من الجديد فيها أيضا استخدام الكتابات التأسيسية المنقوشة على لوحات رخامية و تثبيتها في الحائط على مداخل السباطات و هي ظاهرة تميز بها العصر العثماني و لم يكن ذلك قبله.

و لم يشمل التطور التخطيط و مواد البناء فقط، بل تعدى ذلك إلى تنوع الوظائف، فبعدما كان السباط لربط الأحياء و الأزقة، و لحماية الحكام أصبح السباط يحمل إيوان أو قاعة عرش لاجتماع الحاكم بالرعية للتشاور و معالجة القضايا المختلفة، كما أصبح السباط يحمل بيوت الصلاة المعلقة و هذه الإضافة لتوسيع المسجد بعدما أصبح لا يستوعب العدد الكافي من المصلين، و يحمل السباط أيضا مدرسة لتعليم القرآن و قد يحمل مدرسة و بيت صلاة معلقة معا.

كما أصبح السباط يحمل مقر قيادة القوات البحرية كمركز سياسي و اقتصادي و تجاري، هذا التطور الذي حصل بالسباط أثار في روح البحث بالإضافة إلى عدم تناول هذه الظاهرة المعمارية في الجزائر بالدراسة و البحث و قلة تناولها في بقية الدول العربية الإسلامية الأخرى و هو موضوع قليل ما تناولته الدراسات و الأبحاث مما أدى إلى فقر المكتبة الجزائرية لهذا النوع من المواضيع بالرغم من كثرة الدراسات حول المدينة الإسلامية.

و قد خاضت كتب النوازل و الفقه التي تعود إلى فترات بعيدة نسبيا من الناحية التاريخية، حيث اهتم الفقهاء و القضاة منذ ذلك الوقت بتفسير معظم الخلافات الناتجة عن عنصر السباطات و ذلك بالاعتماد على آراء البنائين و أهل المعرفة، كما قاموا بتوثيق جل هذه الخلافات و القضايا في كتب، والمعروفة بالنوازل.

استطعنا التعرف على أهمية السباط في حياة الناس من جهة، كما تمكنا من الإلمام بعناصره من جهة أخرى، كما كان الاعتماد على الأحكام و القوانين الفقهية لابن الرامي و القيرواني و الونشريسي وغيرهم، و الذين ذكروا هذه الأحكام الضابطة لحياة الناس بالمدينة الإسلامية، المجال الوحيد في هذه الدراسة.

أولا: مفهوم السباطات و تعريفها:

مما لا شك فيه أن المدينة الإسلامية كانت عبر التاريخ تشترك في عدة ملامح ميزتها عن غيرها من المدن الأخرى بالإضافة للوظائف المتعددة التي كانت تؤديها، متحكما في ذلك الدين الإسلامي لضبط خصوصية الفرد المسلم¹، و السباط يشكل ظاهرة من ظواهر المدينة الإسلامية، لكن ماذا تعني هذه التسمية وما هو مفهومها؟.

¹ سعيد (ناصف)، المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة الحضرة، مكتبة زهراء الشرق، مصر، 2005، ص 62.

1- تعريف السباط:

1-1- لغويا:

جاء في لسان العرب المحيط² ومختار الصحاح³ و محيط المحيط⁴ و معجم البلدان⁵

السباط: سقيفة بين حائطين، وفي المحكم: بين دارين، وزاد غيره: من تحتها طريق نافذ، جمع سوابيط و ساباتات، فعل الكلمة سبط.

1-2- تعريف الأجانب:

ورد تعريف كلمة السباط في دائرة المعارف الإسلامية، السباط: نسبة ليوم السبت و هو يلي يوم الجمعة، كما يمكن لهذه الكلمة أن تدل على " أسبوع " من السبت إلى السبت، أي مدة طويلة من الزمن ، و من المؤكد أن الكلمة منسوبة للكلمة الآرامية (شبطة)،(shabbta) و في النهاية من العبرية شاباط (shabbat)، و أخذ المصطلح قبوله الإسلامي بفضل القرآن الكريم، جمع القرآن بين اليهود، السباط والامتناع عن أي عمل فيما يخص العبادات اليهودية، فالقرآن يشير أن يوم الراحة كان إجباريا على اليهود، و العادات الإسلامية تفسره على أساس عقاب أنزل على اليهود لعصيانهم الله يوم الجمعة، و هو اليوم الحقيقي المقدس، حيث أن الله جعل يوم السبت مقدسا مادام اليهود يتوقفون عن العمل ذلك اليوم.

ونجد أيضا عادات مختلفة تعتمد كل من الجمعة، السبت أو الأحد كالיום الشرعي للعبادة، و تحدث القرآن عن اختلافات حول رهبانية السبت حيث تظهر فيها كلمة السبت مرتين بالإضافة على شكل فعل " يسبتون "، تتكلم هذه الآيات عن الذين انتهكوا السبت وتحولوا إلى " قردة خاسئين "(1)، التفكير التأويلي الإسلامي حول هذه الآيات ينطلق من التصريحات التي تجمع بين السبت (السباط)، يوم السبت و الراحة " و معرفة المبدأ الذي ينص أن الله استراح في اليوم السابع للخلق، و مع ذلك رغم أن القرآن يؤكد أن الخلق تم في ستة أيام فإنه يرفض فكرة أن الله يستريح (بمعنى لا يؤثر التعب علينا).

تتمثل المشكلة التفسيرية في شرح الحدث الذي يتمثل في أن اليوم السابع للأسبوع سمي سبت بدون أن يستلزم دلالة على " الراحة " فمثل الجواب في اشتقاق سبت من سابات الذي يفترض انه يحمل المعنى المحصور لـ " ينهى " أو " يبقى هادئا " بدون استلزام " الراحة "، احتفظت كلمة " سبات " مع ذلك بهذا

² محمد بن مكرم (ابن منظور)(ت:711هـ)، لسان العرب المحيط، ج3، تقديم: عبد الله العلايلي، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف (خياط)، دار الجيل، دار لسان العرب، لبنان، (1408هـ/1988م)، حرف السين، ص 87، فعل سبط.

³ محمد بن أبي بكر (الرازي)، مختار الصحاح، ضبط وتخريج وتعليق مصطفى ديب البغا، ط4، دار الهدى، الجزائر، 1990، باب السين، ص 188، فعل سبط.

⁴ المعلم بطرس (البستاني)(ت:1303هـ)، محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1987م، ص 393، باب السين، فعل سبط.

⁵ ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (البغدادى)، معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 166، باب السين و الألف وما يليهما.

المعنى الأخير، إن الحرب الجدلية اليهودية الإسلامية كانت مركزة في غالب الأحيان في أن اليهود يعطون صورة تشبه الإنسان الله بجعله يستريح من خلقه يوم السبت، بالنسبة للمسلمين إذا كان يوم الجمعة يمثل جانباً من جوانب يوم الراحة، وهذا أكثر وضوحاً⁽²⁾، و من خلال هذا التعريف يتبين لنا أن تسمية سابات تعني الراحة لأنها أخذت من يوم السبت عند اليهود، في حين عند المسلمين تعني مكاناً للراحة، حيث وصف عند المسلمين بالسَّباتُ،

غير أن أندريه رافيرو يقول "القب⁽³⁾ التي تغطي الأدرج و الغرف المقببة أيضاً، دريبة، سقيفة، التي يمكن أن نجدها في الجزائر العاصمة، ليس لهم تزيين مميز، تكون الأقواس و القبب تقريبا بارزة في نهايتها، بعملها المتقن يملأ النظر و يحترم البنية التي هي حساسة و آمنة"⁽⁴⁾.

من خلال ذلك نستنتج أن السباطات أطلق عليها القبب أو الأقواس كما كانت تعتبر عنصر ربط مثل السلام، حيث كانت تربط بين المرافق بعضها ببعض كالغرف، كما نلاحظ أنها كانت بسيطة لا تحمل تزيين و هي متقنة الإنشاء مما يدل على مدى ما وصلت إليه العمارة آنذاك من إتقان.

بينما يرى بوايي في وصفه " في بعض الأحيان يتمثل الأمر في قبة حقيقية، و في البعض الآخر في سقف بسيط مدعم بجذوع أشجار العرعار، يختلف ارتفاعها، و طولها، البعض منها يظهر كهيئة الأنفاق المنخفضة و لا يمكننا مواصلة طريقنا إلا إذا انحنينا"⁽¹⁾، من خلال هذا الوصف يتبين أن للسباط سقف بسيط من الخشب و هو أطلق عبارة النفق، يراعي فيه نسبة الطول و الارتفاع، و أن كانت بعض من السباطات قصيرة جداً لدرجة الانحناء.

⁽¹⁾ (C.E), Bosworth, Evan Denzel, (W.P.), Heinrich et (G.), Leconte, Encyclopédie de l'Islam nouvelle édition, T.VIII, Leiden E.g. brills, 1995, p.709, Ned Sam.

⁽²⁾ Ibid, p. 709.

⁽³⁾ - القببة: ج.قباب، تعريب كبه، و معناها كأس الحمامة، و تطلق على انتفاخ كل شيء، و القببة من البناء نوع من التسقيف بشكل نصف كرة، و القببة في الوثائق وحدة معمارية مستقلة، و أحيانا بناء مستقل فقد تكون مدفن أو مكان للاستمتاع و قد تلحق ببناء، انظر:

- محمد محمد (أمين)، ليلي علي (إبراهيم)، المصطلحات المملوكية في الوثائق المعمارية (648 - 923 هـ)، (1250 - 1517 م)، دار النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة، 1990، ص 88، قائم، قبب، قبر، قبة.

⁽⁴⁾ - Ravéreau (A.), op-cit, p.203.

تعريف السباط في اللغة الإنجليزية:

يعرف السباط في اللغة الإنجليزية في القاموس.⁽²⁾

(Sibat, Subat: Arcade roofed or street)

ومعناه: مدخل ذو قنطرة.

- أما باللغة الفرنسية فيعرف السباط بـ: Voûte⁽³⁾ ومعناها القبو، و هو عنصر إنشائي للتغطية.
- أما باللهجة العامية (الدارجة): بمدينة الجزائر بالضبط بالقصبة يطلق عليه نفس اللفظ السباط، أما بمدينة قسنطينة يطلق عليه سكان القصبة السباط، فمنهم من قال معناه الصبّاط (عفسة الصبّاط أو الحذاء)، و آخر قال: السباط هو لربط شارع بآخر.
- يطلق عليه في مدينة تونس الصابة.

بينما يعرفه الأستاذ سامي نوار في كتاب (الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية) بطريقة أخرى أن السباط، السقيفة بين حائطين تحتها طريق نافذ وتجمع على سوابيط وسباطات، فارسية معربة من " بلاس آباد " وقد كان لكسرى سباط في قصره بالمدائن، ويستخدم المصطلح الفارسي " سباط " في بلاد الفرس للدلالة على الممر الذي قد سقف ما فوقه.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ - (P.) Boyer, *la vie quotidienne à Alger*, Librairie hachette, Ankara, s.l, 1963, p.51.
⁽²⁾ - أنظر: جون (كارباو)، *المنجد الإنجليزي - العربي*، ط 2، منشورات المكتبة الشرفية، لبنان، 1970م، ص 57، باب السين.

⁽³⁾ - أنظر: سهيل إدريس، المنهل: قاموس فرنسي- عربي، دار الآداب، بيروت، 2005م، ص 1279، اسم (Voussoiement).
⁽⁴⁾ - سامي (نوار)، *الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية*، ط 1، دار الوفاء، الإسكندرية، 2003م، ص 91، حرف السين.

أما الأستاذ عاصم محمد رزق في معجم (مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية)⁽³⁾، فيجمع التعريفين السابقين معا في تعريفه لهذا المصطلح.

نرى هنا بعض الاختلاف بين تعريف الساباط من الناحية اللغوية و الفقهية ، وبين التعريف الأخير الوارد عند الأساتذة: عبد الرحيم غالب، محمد أمين ومحمد عاصم رزق، لغويا نجد الساباط عبارة عن سقيفة واصله بين جدارين متقابلين دون ذكر ما يوجد فوق هذه السقيفة من بناء سواء كان طبقة أو غرفة فوق عنصر الساباط، هذا ما يجعلنا نميز بين الساباطات نفسها، وتغطية الأسواق في المدينة الإسلامية من خلال وجود الغرف أو خلوها منها فوق السقائف الواصلة بين الجدارين المتقابلين هذا ما يميز بين تسقيف الأسواق وبين عنصر الساباطات.

لدرجة زخرفته بالعقود، و هذا يدل على مدى ما وصل إليه هذا العنصر من تطور معماري شديد، وأنه كان يخصص للطبقة الحاكمة، فلقد ذكر أنه كان يربط القصور بالمساجد في الأندلس.

كما نرى في التعريف الأخير للسباط أنه عنصر من العناصر المعمارية، وهذا لأنه كان يحمل على أعمدة وكانت أرضيته مفروشة بالبلاط، كما كان للسباط عقود، وهذا المزج جعل الاهتمام البالغ بالسباط

⁽¹⁾ - عبد الرحيم (غالب)، موسوعة العمارة الإسلامية، عربي - فرنسي- انكليزي، جروس (پرس) ، بيروت، 1986م، ص217، حرف السين.

⁽²⁾ - محمد محمد (أمين)، ليلي علي (إبراهيم)، المرجع السابق، ص 60، حرف السين.

⁽³⁾ - عاصم محمد (رزق)، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ص 147، حرف السين.

2- وظيفة السباطات:

أثرت عوامل عديدة في النظام العمراني و المعماري للمدينة الإسلامية، و ما إشتملت عليه من أحياء سكنية و مؤسسات مختلفة، كان أهمها عوامل الطبيعة من مناخ و طقس، وعوامل دينية كالوازع الديني و نواهيه التي تفاعل معها المجتمع من نشاطاته و حركيته، مما انعكس على مجموعة من الوظائف المتصلة بحياة المسلم و علاقات فئاته و تواصل أفرادهم ببعضهم، ففي القرى مثلا تجتمع النساء عند مصادر المياه كالآبار.⁽¹⁾

و كان عنصر السباط مظهرا من مظاهر هذا التواصل و التفاعل بين الأفراد و الجماعات في الأحياء السكنية بالمدينة، ذلك أن السباط يرتبط بشبكة الطرق و اتصالها ببعضها على شكل شريان تواصل.⁽²⁾

كما ترتبط شبكة الطرق بالسباطات المفتوحة عليها و المؤدية إلى جهة من جهاتها من الأحياء أو المساكن، و كانت كثير من السباطات تعلوها وحدات معمارية ، ذات و طائف مختلفة بعضها للأمن و المراقبة لحماية الأحياء من دخول الغرباء و الدليل على ذلك أن بعض هذه الوحدات تشمل على نوافذ مفتوحة على عدة مستويات و في اتجاهات مختلفة بعضها للإنارة و التهوية، و البعض الآخر منها لمراقبة حركة الخارج، كما قدرت بعض الدراسات نسبة المساحات التي تعلوها سباطات الطرق العامة المتصلة بالدروب و الحارات في بعض المدن العربية بالنصف ($\frac{1}{2}$)، بينما قدرت نفس الدراسة نسبة المساحات المسقفة بالدروب الخاصة و الأزقة بحوالي الثلث ($\frac{1}{3}$) على أن الطرق الرئيسية (الحارة) تكون أكثر اتساعا من الدروب و الأزقة المتفرعة عنها.⁽³⁾

⁽¹⁾ - جميل عبد القادر (أكبر)، عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، ط3، مؤسسة الرسالة ناشرون، لبنان، (1419هـ - 1998م)، ص22، 28.

⁽²⁾ - سعد عبد الكريم (شهاب)، أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية، 2009م، ص 152، 153.

⁽³⁾ - سعد عبد الكريم (شهاب)، بلدة القصر و آثارها الإسلامية، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001م، ص75، 86.

إن وجود السباطات بالشوارع الضيقة والأزقة كان لحماية المارة من أشعة الشمس ومن المطر⁽¹⁾، كما كانت السباطات تقوم بنفس الدور في الحماية من العوامل الطبيعية بالشوارع المتسعة أيضا⁽²⁾.

كما كان انتشار السباطات في الطرق الضيقة المنحنية لربط المباني ببعضها من جهة وخفض درجة الحرارة من جهة أخرى لتكون بذلك الطرق مظلة⁽³⁾.

كما تقوم السباطات بتوفير الظل، وبذلك يبرد الهواء في المكان المغطى، مما يؤدي إلى اختلاف درجة حرارة الهواء في الشارع، هذا الاختلاف بين هواء بارد أسفل السباط وهواء ساخن في المكان المكشوف، يساعد على تحريك الهواء، مما يجعل حركته تساعد على تلطيف درجة الحرارة، كما أن السباطات تساعد على احتفاظ الطرق التي تعلوها ببعض حرارتها شتاء، لهذا كان لإنشاء السباطات معالجة مناخية للتغلب على حرارة الصيف وبرودة الشتاء⁽⁴⁾.

كذلك من بين الوظائف التي تقوم بها السباطات أنها تعمل على تنشيط حركة الهواء باستمرار نتيجة لفرق الضغط الجوي الناتج عن اختلاف درجات الحرارة بين الفراغ الصغير المظلل و الفراغ الكبير المكشوف كما تعمل على توفير أماكن الجلوس بها وذلك بإقامة مقاعد، و التي تقوم بوظيفة اجتماعية من حقها تدعيم التقارب و التواصل بين أهل الأحياء، بالإضافة إلى ما توفره للسائر من تدرج في الانتقال من الضوء إلى الظل بسبب التسقيف هذا ما يجعله في حالة رؤية متجددة ، حيث يكسر بداخله الملل.

كما أن للسباطات دور في تظليل شبكة الطرق بعلوها في الحارات و الدروب والأزقة حيث أن ارتفاع المباني بنسبة $\frac{1}{4}$ من اتساع الطريق تؤدي دورا واضحا في انعكاس الظلال عليها بالنهار فيما عدا فترة الظهيرة، حيث تكون أشعة الشمس عمودية على سطح الأرض، فقد ساهمت السباطات في تظليل النسبة الكبيرة من الطرق مشاركة بذلك في ارتفاع المباني، وفي الشوارع ذات الاتجاه مع حركة الشمس كانت السباطات من الوسائل المعالجة لتجنب حرارة الشمس، وكان يتحكم في ارتفاع السباط ما تقوم به من الوظائف التي تؤديها هذه الطرق من مرور مشاة أو دواب ولهذه الوظيفة أثر مباشر في تحديد اتساع وارتفاع السباطات، ما كان للجوار واختلاف

⁽¹⁾- سعيد (ناصر)، المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة الحضرة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2005م، ص 65.
⁽²⁾- إلهام حسين (دحروج)، مدينة قايس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية حوالي (442-665هـ) - (1051 - 1247م)، رسالة للحصول على درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والدراسات، جامعة القاهرة، (1421هـ- 2000 م)، ص 28.

⁽³⁾- جميل عبد القادر (أكبر)، المرجع السابق، ص 238.
⁽⁴⁾- محمد عبد الستار (عثمان)، عمارة سدوس التقليدية، دراسة أثرية معمارية، دراسة حالة، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، 1999م، ص 149.

درجة القرابة بين ساكني مجموعة الدور و التي تليها دورها الهام الذي أثر على مدى اتساع ما يتناسب مع الأحكام الفقهية وما اتفق عليه العلماء، وحسب العرف السائد فقد وضحت الأحكام الفقهية بصورة واضحة في الطرق العامة حيث يشرع للطريق النافذة إتخاذ سباط مادام لا يضر بالعامة ولا يملك أحد منعه، حيث يشترط رفعه عن رؤوس المارين، ويلاحظ الحرص على حق الطريق بإقامة سباط أسفل طريق به مقعد لعائلة واحدة.⁽¹⁾

أما بالنسبة للطرق العامة فقد كان الغرض من إنشاء السباطات عليها يتم بشروط معينة متفق عليها لمراعاة حق الطريق وحقوق الجوار أيضا⁽²⁾، كما يمكن إحداث ضم دار إلى أخرى نتيجة هذا الضم تحدث تعديلات معمارية تمكن من استغلال الدارين كدار واحدة بالوصل بينهما لتسهيل حركة التنقل بين الدارين بعمل سباط وهذا بسبب القرابة ورغبة في بناء ذوي الرحم لدورهم متجاورة في منطقة واحدة هذا التقليد الاجتماعي لضم الميراث أو الشراء أو الهبة إلى غير ذلك ، حيث يقوم في هذه الحالة السباط فوق الممرات بربط الدور كدار واحدة.⁽³⁾

كما تؤدي السباطات وظيفة تجارية باحتوائها على حوانيت ودكاكين، فانتشار الحوانيت الصغيرة بأروقة المداخل، حيث كانت هاته الحوانيت تطل على الشوارع، ولكل منها واجهة، ولها مصراعان يستخدم العلوي للصناعة و السفلي عادة لعرض البضائع، ويمتد الحانوت إلى الداخل، والجدير بالذكر أن التجار و الحرفيين كانوا لا يقطنون في دكاكينهم فقد كانت تغلق وتحرس ليلا، وكانت الدروب تقطعها الأزقة التي تغلق عادة بأبواب متينة عند الغروب، وكانت مداخل المنازل الخاصة تتقابل في هذه الأزقة، وعادة ما كان الشارع مغطى بالخشب و الذي يعرف بالسقيفة أو السباط.⁽⁴⁾

⁽¹⁾- سعد عبد الكريم (شهاب)، بلدة القصر، المرجع السابق، ص 78، 81.

⁽²⁾- سعد عبد الكريم (شهاب)، بلدة القصر، المرجع السابق، ص 88، 91.

⁽³⁾- محمد عبد الستار (عثمان)، موسوعة العمارة الفاطمية، العمارة الفاطمية " الحربية- المدنية- الدينية"، ط1، دار القاهرة، القاهرة، 2006، ص 208.

⁽⁴⁾- ر.ب(سرجنت)، المدينة الإسلامية، ترجمة: أحمد محمد (تعليق)، اليسكومورافجر، اليونسكو، 1983م، ص 104 .

كما كان للسباط دور في ستر ما بداخل الدارين المتقابلين نتيجة للاتفاق بين الفريقين المتجاورين أو نتيجة لحكم قضائي.⁽¹⁾

إضافة إلى ما سبق ذكره فقد كان السباط يؤدي وظيفة الحماية و الأمن للحكام، ففي الأندلس بالعصر الأموي إتجه الحكام إلى بناء المساجد الضخمة وزخرفتها حيث بنى الخليفة عبد الرحمان جامع قرطبة الكبير، ثم جاء عبد الله، وكان حريص على أن يحيط نفسه بأسباب السلامة، فأنشأ بذلك ممشى مظلا (سباطا) يربط ما بين الجامع وقصره الذي يحاذيه من جهة الغرب تقليدا بذلك للأمويين بالشام.⁽²⁾

وكان لارتباط الجامع بالقصر في الأندلس علاقة التجاور بحيث يسهل التوجه و التنقل من القصر إلى الجامع، و بذلك يتم تسهيل إتصال الجهات الإدارية للدولة بالعامه⁽³⁾، وهذه وظيفة أخرى للسباط تمثلت في تسهيل التنقل من جهة، واتصال العامة بدار الإمارة من جهة أخرى، وأحيانا يصل السباط بين المنشأة وبين أحد المباني المقابلة لها، حيث نراه يربط بين المنشأة وبين ما يلحق بها من وحدات في الجهة المقابلة لها، فضلا عن الوظائف السابقة للسباطات فإنها تعد وسيلة تستجيب لضرورة حيوية وهي للتغلب على مشكلة المساحة الصغيرة للدور السكنية وإزدحامها، حيث يتم تغطية الشوارع في معظم أجزائها بسباطات يتم إستغلالها في توسيع المساكن وزيادة عدد وحداتها، ومن جانب آخر تحقيق الاتصال بينها، وهذا ما نجده في المدن المغربية والأندلسية المكتظة بالسكان، وتحديدًا بالفترة السعدية.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ - جميل عبد القادر (أكبر)، المرجع السابق، ص 211.

⁽²⁾ - كارل (بروكلمان)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط5، نقله إلى العربية نبيه أمين (فارس)، دار العلم للملايين، بيروت، تموز 1968م، ص 296.

⁽³⁾ - محمد عبد الستار (عثمان)، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1988م، ص 160.

⁽⁴⁾ - محمد السيد (أبو رحاب)، العنصر الديني و الجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين، ط1، دراسة أثرية

معمارية، دار القاهرة، القاهرة، 2008م، ص 519، 520.

كذلك بالإضافة إلى وظيفة السباطات بالأحياء، فقد أدت وظيفة وحدة الجوار في العمارة الإسلامية، ففكرة ربط الشوارع ببعضها تساعد على خلق روابط يومية بين المجتمع، كذلك تقسيم الشوارع إلى مقاطع ذات محاور متكررة تتم إضفاء صورة متجددة دائما⁽¹⁾ تبعث كسر الملل في نفس السائر كما ذكرنا سابقا.

نظرا للفائدة التي يؤديها السباط للسكان و للمارة في الطريق، أكثر المسلمون من بناء السباطات، بذلك استفاد سكان الحي و المارة معا، فعادة يتجمع الاطفال للعب في الأماكن المظللة، فكان بذلك السباط أنسب مكان للتجمع، فقد أدى بذلك وظيفة اجتماعية، حيث يضي جانباً من الخصوصية لسكان الحي الواحد، حيث كان السكان يهتمون بالمكان تحت السباط و ذلك بتنظيفه، كما كان لطول السباط و تغطيته للطريق دور في شعور المارة و كأنهم يسرون في نفق من طول السباط و ما يوفره من ظل، ومثالنا في ذلك السباطات التي توجد بالقرى على طول وادي ضرعة جنوبي المغرب، هذا ما يؤدي إلى ظلمة شديدة في الطريق وبذلك يمنع تواجد الذباب، كما كان السباط يستخدم لتخزين التمر، وذلك بفرش الجريد وسعف النخيل، ليمر بذلك الهواء الخارجي لتهوية التمر ويخرج من النوافذ لتجديد الهواء حيث أن السباط يصل بين دارين ويستخدم كمر بينهما ومن الجهة العلوية تخزن به التمر.⁽²⁾

كما كان يراعى في إحداث السباطات الطويلة ترك فراغات صغيرة بدون تسقيف و هي عبارة عن ملاقف⁽³⁾ و التي كانت تقوم بتوفير الضوء و الهواء، بالإضافة أنها تساعد على تهوية الطوابق التي تعلو الطريق و الغرض من إنشاء السباطات على الطرق العامة حل مشكلة المناخ وتوسيع مساحة الطوابق العليا من الدور أيضا.⁽⁴⁾

كما أن للملاقف دور في تقليل الأتربة و الرمال التي تحملها الرياح في المستوى المنخفض.⁽⁵⁾

⁽¹⁾- إلهام حسين (دحروج)، المرجع السابق، ص 28.

⁽²⁾- جميل عبد القادر (أكبر)، المرجع السابق، ص 266، 267.

⁽³⁾- الملقف: جمع ملاقف، يسمى أيضا بإذهنج، فتحة ترتفع عن سطوح الأبنية في الأماكن الحارة مائلة للسقف مغلقة الجوانب ما عدا الجهة التي تواجه تيارات الهواء الرطب لتتلقفه فينحدر إلى الطوابق السفلى ويحل محل الهواء الحار الذي يصعد إلى أعلى مما يخلق تيارا هوائيا رطبا باستمرار حتى في غياب الريح، أنظر: عبد الرحيم (غالب)، المرجع السابق، ص 405.

⁽⁴⁾- سعد عبد الكريم (شهاب)، بلدة القصر، المرجع السابق، ص 88.

⁽⁵⁾- محمد (أبو رحاب)، المرجع السابق، ص 524.

3 - السياق التاريخي لعنصر السباطات في العمارة الإسلامية:

لقد ورد مصطلح " سباط " لدى العرب منذ السنوات الأولى للهجرة اسم لموقع في ما وراء النهر، كاسم لموقع في العراق، و آخر قريب منه يدعى " مظلم سباط " و هو عبارة عن منشأة عسكرية، قد يكون شكلها المعماري أو أحد عناصرها مثل السقيفة المبنية بين جدارين و فوقها علو و تحتها طريق والذي يمثل النموذج الأول للسباط⁽²⁾، و قيل السقيفة هي المكان المظلل كالسباط أو الحانوت الذي بجانب الدار، و كأنه أشار في حديث اجتماع المهاجرين و الأنصار في سقيفة بني ساعدة، إلى أن الجلوس في الأمكنة العامة جائز، و أن اتخاذ صاحب الدار سباطا أو مستظلا جائز إذا لم يضر⁽³⁾، ثم كان ظهور السباط بالعهد الأموي تقليدا لخلفاء الأندلس و الذي كان يربط الجامع بالقصر، حيث أن الحاكم عبد الله، كان شديد الحرص على سلامته خوفا من الاعتداءات، فأنشأ ممشى مظلا (سباطا) يربط بين الجامع وقصره الذي يحاذيه من جهة الغرب، كما كانت الحال على عهد الأمويين بالشام⁽⁴⁾، كما انتقل تقليد السباط من ديار الخلافة الأموية بالشام إلى ديار الخلافة العباسية ببغداد، حيث كانت تبنى القصور في العهد العباسي و يستعمل في بناء الأعمدة التي تقام عليها السقيفة أو السباط، و التي كان يقيم بها صاحب الشرطة قرب قصر الذهب ببغداد⁽⁵⁾، أما في إفريقيا كان السباط معروفا منذ العهد الأغلبي، حيث سئل الفقيه سحنون بن سعيد (160هـ/777م - 240هـ/854م) صاحب المدونة عن إحداث السباط، و كذلك ذكر في العهد الصنهاجي، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، فقد أفتى أيضا الفقيه

⁽¹⁾ - مراد (الزبيدي)، " تحقيق رسالة " تحقيق المناط في عدم إعادة السباط " للشيخ بيرم الثاني و الذيل عليها"، مجلة " قراءات في الفكر المعماري و العمراني العربي و الإسلامي"، منشورات فقهاء تونس، المعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، (1429هـ/2008م)، ص 401.

⁽²⁾ - أحمد بن علي بن حجر (العسقلاني)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أخرجه و صححه و حققه: محب الدين (الخطيب)، رقم كتبه و أبوابه و أحاديثه: محمد فؤاد (عبد الباقي)، راجعه: قصي محب الدين (الخطيب)، ط 1، ج 4، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، (1407هـ/1986م)، ج 5، ص 130، 131.

⁽³⁾ - كارل (بروكلمان)، المرجع السابق، ص 297.

⁽⁴⁾ - صالح محمد (علي)، معالم بغداد الإدارية و العمرانية، دراسة تخطيطية، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، العراق، 1988م، ص 17، 18.

عثمان بن أبي المعروف بابن الضابط الصفاقسي (386هـ/995م - 444هـ/1052م) في مسألة تخص السباط، كما عرضت أيضا على قاضي الجماعة بتونس في العهد الحفصي أبا زيد عبد الرحمن القطان البلوي (كان حيا سنة 701هـ/1302م)، صاحب كتاب " النوازل"، في الأحكام على المذهب المالكي والذي ينقل عنه ابن الرامي⁽¹⁾.

انتشرت السباطات في المغرب الأقصى، و من أشهرها السباط الذي بمسجد الكتبية بمراكش، و في مدينة طرابلس حي يسمى " عين السباط ".⁽²⁾

لقد اتجهت همة الحكام بالأندلس إلى إنشاء المساجد الفخمة و زخرفتها، فبني عبد الرحمن الداخل سنة (169هـ/785م - 170هـ/786م) جامع قرطبة الكبير⁽³⁾، و الذي استغرق بناؤه اثني عشرة شهرا⁽⁴⁾، و في عهد الحاكم المستنصر بالله⁽⁵⁾، أحدث مقصورة⁽⁶⁾، و التي كان بداخلها باب و احد في قبلته متصل بالسباط المفضي إلى قصر الخلافة، منه كان يخرج السلطان من القصر إلى الجامع لأداء صلاة العيد و الجمعة.⁽⁷⁾

كما عمد عبد الله حماية نفسه هو الآخر فأنشأ في المسجد الجامع بالزهراء سباطا يفضي من قصره إلى المحراب، كما أقام ساترة جعلته في عزلة عن الناس.⁽⁸⁾

⁽¹⁾ - مراد (الزبيدي)، المرجع السابق، ص 402.

⁽²⁾ - عبد الرحيم (غالب)، المرجع السابق، ص 217.

⁽³⁾ - المسجد الجامع بقرطبة: كان من أعظم المساجد و أكبرها بناه عبد الرحمن الداخل في الجهة المقابلة لقصر الإمارة، أنفق عليه ثمانين ألف دينار، كان جامعة إسلامية يدرس فيه العلوم الدينية و اللغوية، و يغو إليه الطلاب للدرس و التحصيل، و أطلق عليه عبد الواحد المراكشي " الجامع الأعظم " أنظر:

- السيد عبد العزيز (سالم)، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، ج 2، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 197.

- إبراهيم (فرغلي)، تاريخ و حضارة الأندلس، ط 1، العربي للنشر و التوزيع، القاهرة، 2006م، ص 146، 147.

⁽⁴⁾ - كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص 296.

⁽⁵⁾ - المقصورة: هي الدار أو المكان المحصن بالحيطان، و المقصورة لا يدخلها إلا أصحابها، و يرد في الوثائق للدلالة على مقام الإمام أمام المحراب، انظر:

- محمد محمد (أمين)، المرجع السابق، ص 133.

⁽⁶⁾ - الحكم المستنصر بالله (350-366هـ/961-976م)، بعد وفاة عبد الرحمن الثالث تولى الحكم ابنه (الحكم الثاني) المستنصر بالله سنة (350هـ/961م)، و ذلك بعد أن ترك له أبوه دولة قوية مستقرة، في عهده سكنت الفتنة، أنظر:

- إبراهيم (فرغلي)، المرجع السابق، ص 100.

⁽⁷⁾ - أحمد بن محمد المقرئ (التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، حققه: إحسان (عباس)، دار صادر، بيروت، (1408هـ/1988م)، ص 550.

⁽⁸⁾ - مانويل جوميت (مورينو)، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي (عبد البديع)، السيد محمود عبد العزيز (سالم)، راجعه: جمال محمد (محرز)، دار الكاتب العربي، مصر، 1988م، ص 70.

كما ميز السباط العمارة بمصر في العهد الفاطمي، حيث تستوقفنا عبارة " بين القصرين " و التي كانت معروفة قبل الفتح الفاطمي بأكثر من ثلاثة قرون، و أن بناء قصرين متقابلين على جانب الطريق كان موجودا ثم تكرر الوضع مرة أخرى في القلعة الفاطمية بالقاهرة، و ذلك عندما بنى الخليفة العزيز بالله القصر الغربي الصغير لأبنته ست الملك مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر الصقلي⁽¹⁾، و كان لهذا القصر عدة أبواب إحداها باب السباط، و الذي أصبح يعرف فيما بعد بباب سر البيمارستان، و هو بجوار حمام السباط⁽²⁾، أما خير أمثلة السباطات في عمارة مصر الإسلامية هي سقيفة الغوري بالغورية (أوائل القرن 10هـ/16م)، و سقيفة رضوان بك بالخيامية (1060هـ/1650م)، و كذلك سباطات قرية شالي بواحة سيوة بمصر أيضا.⁽³⁾

كما وجد السباط بالعمارة السعدية بالمغرب، ذكر و جود خلوة الأسبوع⁽⁴⁾ بأعلى السباط الذي يصل بين جامع " الأشراف " المواسين بمراكش بجدار المبنى المقابل لها و هي غرفة مستطيلة⁽⁵⁾، و لا يزال السباط قائما، نجده في العمارة التقليدية بالرياض، حيث بلغ عدد السباطات بقرية سدوس (36) سباطا⁽⁶⁾، و لا يزال السباط موجودا لحد الآن حيث نراه بقصور الجنوب الجزائري ببشار، و كذلك نلاحظ تواجده بالعمارة الريفية بالجزائر، حيث كانت بالقري سباطات، و قيل أنها كانت لحماية قطع الغنم من الحر صيفا و من المطر شتاء.⁽⁷⁾

أما في المدن التونسية فإن عنصر السباطات منتشر، بها حوالي (120) سباطا، بعضها له شهرة مثل " سباط الدزيري " و " سباط عجم " .⁽⁸⁾

⁽¹⁾ - فريد (الشافعي)، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، ج 1، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، مصر 1970، ص 357.

⁽²⁾ - محمد عبد الستار (عثمان)، موسوعة العمارة الفاطمية، المرجع السابق، ص 173 .

⁽³⁾ - مراد (الزبيدي)، المرجع السابق، ص 402 .

⁽⁴⁾ - الخلوة: الدور الأرضي للمسجد يستخدم للصلاة عادة في فصل الشتاء اتقاء البرد، و الأصل في الخلوة أن عمر بن الخطاب اتخذ رحبة في ناحية المسجد لقراءة القرآن، أنظر:

- أبو رحاب، المرجع السابق، ص 465.

- محمد عبد الستار (عثمان)، عمارة سدوس التقليدية، المرجع السابق، ص 96 .

⁽⁵⁾ - محمد (أبو رحاب)، المرجع السابق، ص 271، 290 .

⁽⁶⁾ - محمد عبد الستار (عثمان)، عمارة سدوس، المرجع السابق، ص 5، 165.

⁽⁷⁾ - رواية شفوية لأحد سكان قرية الحمرا بولاية برج بوعريريج.

⁽⁸⁾ - مراد (الزبيدي)، المرجع السابق، ص 403.

لقد حاولنا من خلال هذا البحث التوصل إلى التعريف بعنصر السباطات عموماً، و ذلك بالاعتماد على التعريفات اللغوية المتعددة و كذلك من خلال الدراسات الفقهية، إضافة إلى تتبع السياق التاريخي لعنصر السباطات في العمارة الإسلامية، حيث أن الحالة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية كان لها التأثير المباشر في ظهور السباطات، و بالتالي انعكس هذا على ترابط و تجاور الأسر ضمن نسيج عمراني موحد، وذلك للسعي على تماسك الأسرة و بقائها مع بعضها، الشيء الذي دفع البحث على مساحات سكنية إضافية للتوسع من جهة، و لبقاء أفراد الأسرة الواحدة مع بعضها البعض من جهة ثانية، هذا ما أدى إلى انتشار السباطات بالمدن الإسلامية، كما كان السباط يربط المبنى بملحقاته كالغرف مؤدياً بذلك دور الربط و المشابه للدور الذي كانت تؤديه السلال، بالإضافة إلى أنها كانت تربط الأحياء و الأزقة و بالتالي كان لها أثرها الإيجابي بالنسيج العمراني و الذي أثر بشكل واضح على الحالة الاجتماعية للناس، لما يوفره من ظل بالأماكن التي يلتقي و يجتمع بها الناس، كما تحمي من العوامل المناخية المتغيرة.

تغيرت طبيعة استعمال السباطات، حيث أن بعض منها كانت تستغل كورش صناعية فوق أو داخل السباط، كما كان لوثائق المحاكم الشرعية و سلسلة بيت المال الدليل في معرفة الفترة التي كان بها السباط يشغل محلاً للسكن أو التجارة على حد سواء (أنظر المخطط رقم (01)، (02) و (03)).

كما وجدنا ظاهرة تشبه عنصر السباطات بمدينة الجزائر (أنظر لوحة رقم (01)، (02) و (04))، موضوع الدراسة و هي ظاهرة البروزات، لدرجة أنه خلال القيام بزيارة المواقع للمرة الأولى اختلط الأمر و أصبح التفريق بين البروزات و السباطات صعباً خاصة للوهلة الأولى، إلا أنه بعد تكرار الزيارات الميدانية زال الالتباس، و هذه الظاهرة أي البروزات لم نجدها بمدينة قسنطينة. (أنظر لوحة رقم (03)).

ظهور السباطات كان لدوافع اجتماعية، و لتأدية وظائف تخص الحياة اليومية للناس، بالإضافة إلى الدور المهم الذي كانت تؤديه هذه السباطات من الناحية المناخية من حماية للمارة من مختلف العوامل المتغيرة للمناخ، بالإضافة إلى تلطيف الجو، و هذه وظائف هامة للسباط و التي انعكست إيجابياً على الحياة الاجتماعية للناس من توفير فضاءات إضافية للالتقاء و مشاركة الحياة بالتجاور جنباً إلى جنب.

الملاحظ من خلال الدراسة الميدانية و كذلك من خلال المخططات لمدينتي الجزائر و قسنطينة، أن كثافة السباطات تكون بالجوار من المساجد و هذا مرتبط بالوازع الديني، حيث يتجمع الناس بعد الصلاة في هذه الأماكن.

كما لاحظنا بعد تتبع عنصر السباطات التطور الذي أصبح بمواد البناء، حيث استعمال الرخام بسباطات الحكام، و استعمال الحجر الرملي (الكلسي)، كما أن لتواجد الكتابة التأسيسية بهذا السباط

الأمر الذي زاد في أهمية هذا العنصر، بالإضافة إلى أنها ذات خواص مقاومة لعوامل الرطوبة و الزلازل و حتى أنها مضادة لأنواع من الأسلحة، كما كان لاستخدام أنظمة الإنشاء من الأسقف الخشبية المسطحة إلى استخدام الأقبية البرميلية و المتقاطعة بالحجر و الآجر، ما زاد في الاهتمام بالناحية الجمالية من داخل و خارج السباط.

كما كان لتناوب مناطق الظل و النور بالأحياء و اختلاف مواد البناء و النظام الإنشائي للجدران والأسقف، كل هذا الاختلاف و التنوع المعماري جعل منها للمارة تسلسل لمشاهد معمارية مختلفة تريح المشاهد و تحميه من العوامل المناخية المتغيرة من حر و برد و شتاء.

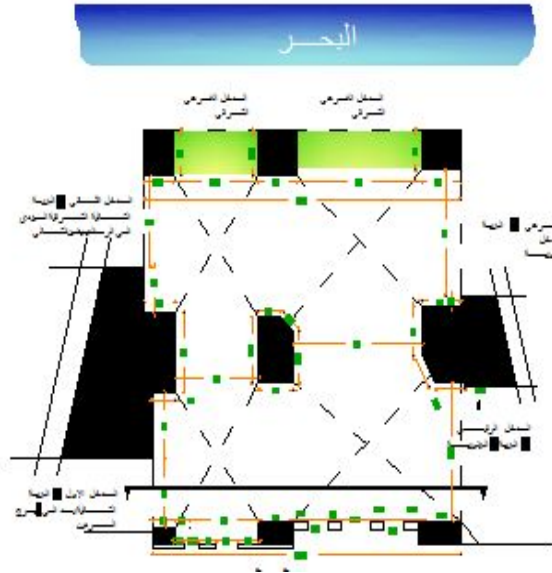
و لكن مع كل هذا الإثراء بالسباطات ضمن النسيج العمراني لاحظنا واقع الإهمال و الفوضى لهذه السباطات، فبعضها اندثر و الآخر مهدم، و الباقي بين الجيد في الأماكن المهمة و البقية بحالة متوسطة معرضة كلها للإهمال و منه للاندثار، لاحظت بمدينة الجزائر تسرب المياه بالجدران والأرضية، مما تسبب في تدهور حالة السباطات، و نفس الشيء بمدينة قسنطينة، كون القصبية بشكل منحدر، فالمياه بالأرضية دائمة التدفق مما أثر و سوف يغير في حالة السباطات المتبقية، و عليه فإن الصيانة وترميم هذه السباطات جد ضروري، لاعتبارها جزء من النسيج العمراني بالمدن الإسلامية، و حفظها كتراث معماري ضروري، و التي تعبر عن هوية الفرد العربي المسلم.



لوحة رقم (02)/ سباط الحوت- المدخل
من الجهة الجنوبية، بمدينة الجزائر.



لوحة رقم (01)/ سباط الحوت خلال سنة
1860م ع/ مسيخ، بمدينة الجزائر.



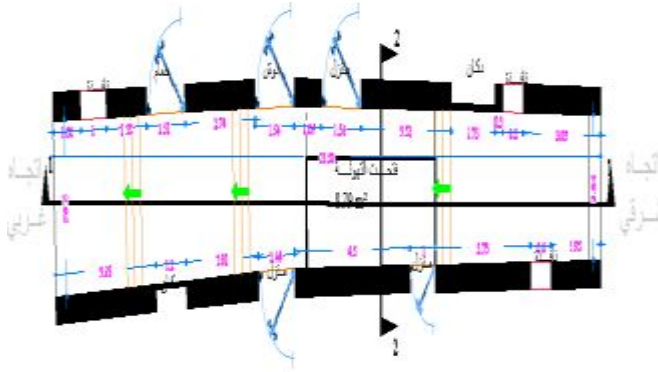
مخطط رقم (01)/ سباط الحوت.



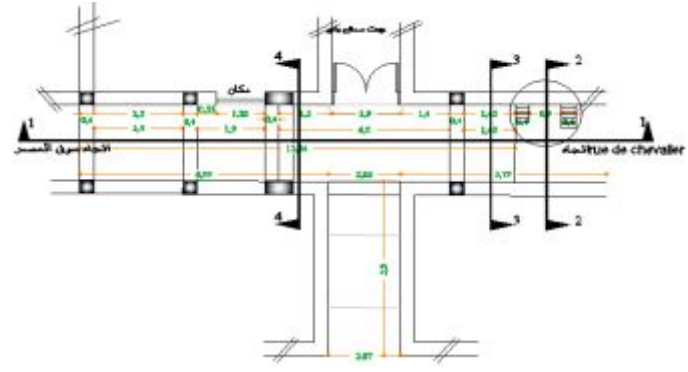
لوحة رقم (04)/ سباط رجم باي- مدخل
السباط من الجهة الغربية، بمدينة الجزائر.



لوحة رقم (03)/ سباط سوق العصر-
المدخل من الجهة الشمالية، بمدينة قسنطينة.



مخطط رقم (03)/ سباط رجم باي.



مخطط رقم (02)/ سباط سوق العصر.